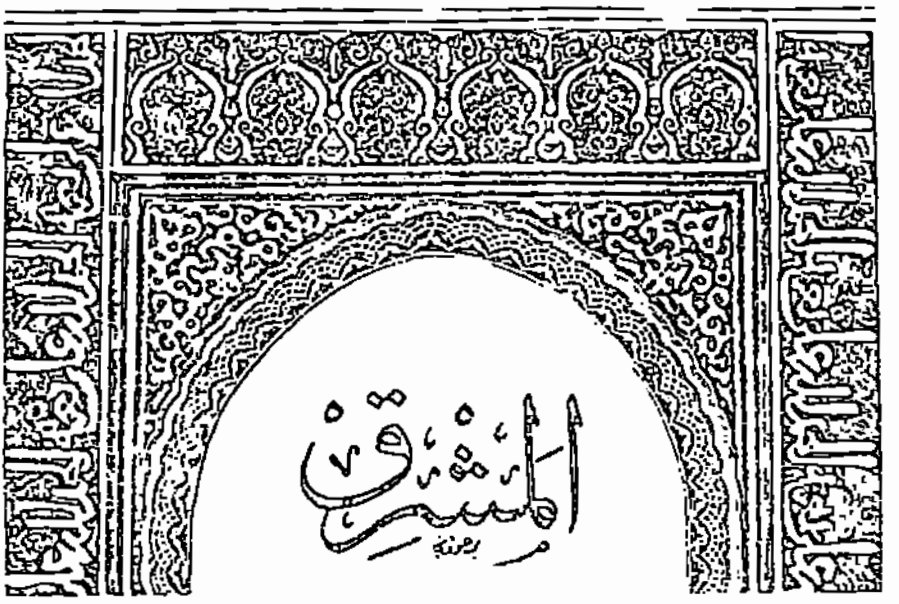

السنة الاربعون السنة ١٩٤٢

لبنان

في عهد المماليك*

بقلم المحامي ابرهيم عوّاد ، دكتور في الحقوق

المماليك قوم من الارقاء البيض منشأ البعض منهم ؛ المعروفون بالمماليك الاتراك ، في قفجاق من شمالي آسية من البلاد القزوينية والقوقاسية ، تشتتت قبائلهم على اثر غزو المغول لبلادهم. فاغتنم تجار الرقيق الفرصة واشتروا من اولاد اولئك التائهين اجملهم صورةً ، واقواهم بنيةً ، وانورهم عقلًا ، وباعوهم من امراء سورية وملوكها الايوبيين . فالملك الصالح الايوبي ابتاع منهم نحو الألف ، وجعل منهم رؤساء دولته وحرسه الخاص ، ورجال بطانته ، ودعاهم بالحلقة ، لأنه كان لا يعرح

*) محاضرة أُلقيت في نادي الشبيبة الكاثوليكية في بيروت .

محاطاً بهم . فتمكنوا بمدة قليلة ، بما كانوا عليه من المواهب الطبيعية ، من حصر مصالح الدولة الهامة في ايديهم ، ومن الاستيلاء على حصون البلاد المصرية المنيعة ، فابتدأوا بامر الملك الصالح الايوبي في جزيرة الروضة ، في النيل ، قصوراً عظيمة منيعة ، فسموا بالمماليك البحريين . وعندما اشتدت سطوتهم ، استولوا على السلطنة ، وقتلوا سلطانهم المعظم ابن سلطانهم الصالح الايوبي ، وحكموا مصر وسورية من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٣٨٢ مسيحية .

اما منشأ القسم الآخر من المماليك فهو في نواحي بحر قزبين ايضاً ، في بلاد شركاسية ، ويعرفون بالمماليك الشراكسة . وقد اقتنى سلاطين المماليك البحرية عدداً وافراً منهم وجعلوا سكناهم في الابراج ، فلقبوا بالبرجيين . ثم ازدادوا عدداً وقوة الى ان تمكنوا من نزع الملك من السلاطين البحريين ، وجعلوا سلطاناً عليهم المملوك برقوق ، ولقبوه بالملك الظاهر . وهو اول سلطان من المماليك الشراكسة ، ومؤسس دولة المماليك الثانية التي تولت السلطنة في مصر وسورية من سنة ١٣٨٢ الى سنة ١٥١٦ مسيحية . حيث انتصرت الجيوش العثمانية ، بقيادة السلطان سليم الاول ، على جيوش المماليك بقيادة السلطان قانصو الغوري ببرج دابق ، قرب حلب .[1]

قسم المماليك سورية الى ستّ ممالك ، او نيابات : دمشق ، حلب ، حماه ، طرابلس ، صفد ، الكرك . وجعلوا على رأس كل مملكة او نيابة حاكماً أو نائباً .

وكان لبنان الشمالي وكسروان تابعين لنيابة طرابلس . والبقاع ، وبعلبك ، والشوف ، والغرب ، وبيروت ، وصيدا كانت تابعة لنيابة دمشق . اما لبنان الجنوبي وصور فكانا تابعين لنيابة صفد[2] .

---

١) جرجي زيدان : تاريخ مصر الحديث ، مصر ، ١٨٨٩ ، الجزء الثاني ، ص ٣ و ٤ و ٤٢ و ٤٣

٢) Gaudefroy-Demombynes, *La Syrie à l'époque des Mamlouks*. Paris, Paul Geuthner, 1923

ان لبنان في عهد المماليك لم يكن ، كما هو الآن ، ذا حدود ثابتة ومعينة بدقة . ولكنه كان يتألف من مجموع اقطاعات على رأس كل منها امير ، او مقدّم لبناني ، يتولى الحكم فيها منذ زمن بعيد ، من ايام السلاطين الايوبيين والصليبيين ومن قبلهم ؛ فثبّتهم في حكمهم واقطاعاتهم السلاطين المماليك الذين حلوا محل الايوبيين والصليبيين في مصر وسورية .

وهكذا كانت أزمّة الاحكام والادارة الداخلية في لبنان ، في عهد المماليك ، اي خلال القسم الثاني من القرن الثالث عشر وطيلة القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، محصورة في ايدي اللبنانيين ، كما كانت في ايديهم على ايام الايوبيين والصليبيين . فالقضاء ، والمالية ، والشرطة ، والمحافظة على الأمن ، والجيش اللبناني ، كان مرجعها الوحيد السلطات اللبنانية وحدها .

ان عصر المماليك في لبنان يجب ان يقسم الى قسمين : القسم الاول يتناول الجزء الثاني من القرن الثالث عشر ، من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٣٠٥ ، سنة خراب المماليك لكسروان . والقسم الثاني يتناول القرنين الرابع عشر والخامس عشر بكاملهما الى سنة ١٥١٦ ، تاريخ انتصار العثمانيين على المماليك في مصر وسورية .

والقسم الاول اهم بكثير من القسم الثاني بالنسبة الى اللبنانيين ، لأن هذا العهد ما هو الا عهد مقاومة عنيفة ومسلحة ، وسلسلة حروب متواصلة دامية . زد على ذلك ان الصليبيين قد خسروا في هذا العهد بقية ممتلكاتهم في لبنان .

من هم سكان لبنان في الجزء الثاني من القرن الثالث عشر ؟ وما هي علاقاتهم بعضهم مع البعض ؟ وما هي اسلحتهم ؟ وما هو تنظيمهم الحربي بالنسبة الى اعدائهم المماليك ؟ واخيرًا كيف تمكن المماليك من اخضاع المقاطعات اللبنانية الواحدة تلو الاخرى ومن تحطيم قلعتهم الاخيرة ، كسروان ، المعروفة بالعاصية او الخارجة ؟

هذه هي الاسئلة التي نسعى ان نجاوب عنها :

كان يقطن لبنان في هذا العهد اقليات لها ديانات مختلفة تعيش بالقرب بعضها

من البعض ، ذات وحدة اجتماعية واقتصادية وسياسية قد اقتسمت لبنان على الشكل الاتي :

في لبنان الشمالي ، وفي كسروان ، كان يسكن الموارنة . وكان يقيم بينهم اقليات من الملكيين واليعاقبة ؛ وكان لكل قرية كبيرة رئيس يُدعى المقدَّم. ولكل مقدَّم في قريته حصن او حصون عديدة او على الاقل برج. فكان يرتفع وتتنذ في جبلنا حصون وابراج وتحصينات قويـة تقف في وجه الفاتحين عقبة كؤودًا .

ان الأسقف الماروني جبرائيل ابن القلاعي اللحفدي نظم ، في القرن الخامس عشر ، زجلية عامية لتخليد ذكرى المقدمين بقيت زمناً طويلًا مخطوطة تلاعبت بها ايدي النساخ الى ان نشرها بالطبع المؤرخ البحاثة الخوري بولس قرألي، في مجلته البطريركية في السنة ١٩٣٥ . ولقد جاء بالزجلية المذكورة انه عند اوائل هذا العهد اجتمع الاساقفة الموارنة من الدريب الى بلاد الشوف في جبيل تحت رئاسة البطريرك ، وكان عددهم اربعين اسقفاً ، وانتخبوا سمعان مقدم بكفيا - بسكنتا ملكاً على كسروان المعروفة بالعاصية او الخارجة .

كان الموارنة يملكون في جنوبي كسروان قلعتين شهيرتين : الحاجزية في انطلياس ، والعالية في بحرصاف عند مدخل بكفيا حيث ترتفع الان قبة قبور الامراء بللمع . ولقد اخبرتنا التواريخ والتقاليد عن علاقات ودية كانت بين الامير سمعان هذا والقديس لويس ملك فرنسة .

في الجرد ، اي في جرد كسروان ، والجبال العالية الكائنة شرقي بيروت ، حول جبل صنين وجبل الكنيسة ، كانت تقطن طائفة قوية من الدروز بين اقليات من المتاولة والنصيريين والنصارى ، وكان زعماء هذه الطائفة الدرزية يقيمون في كفرسلوان وحمانا . ويرى ان المؤرخين الموارنة في القرن الرابع عشر يطلقون على زعماء كفرسلوان والجرد لقب المقدمين بللمع.[1] اما المؤرخون الدروز

---

١) الخوري بولس قرألي : حروب المقدمين ؛ المجلة البطريركية سنة ١٩٣٥ ، ص ٨٥ و٨٦

والمسلمون في القرن الرابع عشر والخامس عشر فيسمونهم بامراء الجبال[1]، وكثيرًا ما تسأل الكتبة في عصرنا الحاضر ، فيما اذا كان البلمعيون امراء او مقدمين، فنجيبهم على ذلك انهم كانوا بالوقت نفسه امراء ومقدمين. لان كلمة امير كانت تُطلق عندئذٍ على كل من كان صاحب امر، فكانت لقب اصحاب الوظائف الكبيرة في الجيش او في الادارة . كذلك كلمة مقدم كانت تطلق على كل رئيس في قومه او في وظيفته . فكان يقال امير الجيش ، وامير البحر ، وامير المركب ، وامير المقاطعة ، كما كان يقال مقدم الجيش ، ومقدم المركب ، ومقدم المقاطعة . فاذا كان من فرق بين الكلمتين فهو من جهة المصدر لا من جهة المعنى فيظهر ان مصدر كلمة مقدم هي اللغة الفنيقية لاستعمالها قديمًا عند الفنيقيين ومنها كلمة قدموس الشهير ، ولشيوعها في لبنان وبلاد العلويين وارثي فنيقية . اما كلمة امير فمصدرها الجزيرة العربية . ان مؤرخي النصارى اللبنانيين اطلقوا على البلمعيين لقب مقدمين لأن البلمعيين كانوا ، في القرن الثالث عشر، مقدمي الجرد والشحار والبقاع . اما المؤرخون العرب من مسلمين ودروز فاطلقوا عليهم لقب امراء الجبال لأنهم كانوا حكام تلك الجبال . واليكم دليلًا على ذلك ما جاء في تاريخ بيروت لصالح بن يحيى اذ يذكر طورًا كلمة امير وطورًا كلمة مقدم للدلالة على شيء واحد. فيقول: امير الامراء ، والمقدم على الامراء، وامير الالف ، والمقدم على الالف، واحيانًا يذكر الكلمتين معًا مثلا قوله: « وكان معتاد امرًا ومقدماً على الاشراف. . . » واذا صحّ ما جاء في تاريخ الاعيان لطنوس الشدياق من ان الامير حيدر الشهابي أمر البلمعيين بعد معركة عين داره بان تزوّج منهم وزوّجهم ، فان البلمعيين قد زوجوا بالقرن الثالث عشر اعظم امير تنوخي ، سعد الدين خضر ، ثم صاهر البلمعيون في القرن السادس عشر فخر الدين المعني الكبير، وتزوجت بنتًا الامير ملحم ممن ابن اخ الامير فخر الدين الكبير من ولدي المقدم علم الدين بلمع . ولدينا وثائق خطية وكتابات حجرية ترجع الى

---

(١) صالح بن يحيى (طبعة ثانية) المطبعة الكاثوليكية ، سنة ١٩٢٧ ، ص ٧٧ . والامير حيدر شهاب: كتاب الدرر الحسان: الجزء الاول ، مطبعة السلام بمصر سنة ١٩٠٠ ، ص ٤١٠

قبل سنة ١٧١١ ، تاريخ موقعة عين داره ، تثبت انه كان يُطلق على آل بلمع لقب امراء. كما كان يُطلق عليهم لقب مقدمين.

اما زعماء حمانا فهم المقدمون آل مزهر . وان هذه العائلة النبيلة حافظت وحدها في لبنان الى الان، منذ القرن الثالث عشر ، على منازل جدودها وعلى لقب مقدم الذي يحمله كل فرد من افرادها . وان الكتابة التي وجدت على قبر المقدم صارم الدين مزهر في حمانا تدل على ان هذه العائلة كانت في مقدمة الاسر الجردية في القرن الثالث عشر. ولعلها فرع من اسرة بلمع. وثم ولا شك من سلالة امراء الجبال المشهورين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في جرد كسروان .

ولنعد الى ذكر المناطق اللبنانية :

عين زحلتا كانت ملكاً لطائفة درزية شهيرة تعرف ببني الشويزاني او السويزاني او السوبجاني[1]، اجداد المشايخ آل عبد الملك في بتاتر.[2]

في بعقلين وبلاد الشوف كان يقطن الدروز ، وعلى رأسهم الامراء المعنيون الذين كان بينهم وبين الامراء الشهابيين، منذ ذلك الحين، علاقات قرابة وصداقة متينة .

اما مقدم الشوف فكان في ذلك الوقت ، على قول صالح بن يحيى ، معضاد ابن عز الدين معضاد[3].

في حاصبيا ووادي التيم مهد الدروز في لبنان، كان يقطن الامراء الشهابيون.

وفي صور ولبنان الجنوبي كان يسكن المتاولة من بني عاملة .

الغرب ، او السفح الغربي من الجبال الكائنة بين بيروت وصيدا ، كان تحت سيطرة الامراء البحتريين من بني تنوخ المعروفين بامراء الغرب . وان هذه العائلة النبيلة الدرزية كانت في مقدمة العائلات اللبنانية طيلة عهد المماليك . وقد اتخذ هؤلاء الامراء عاصمة لاقطاعهم اولاً عبيه ، ثم بيروت. وكان بين عائلة

١) صالح بن يحيى ، ص ١٠٠ بالحاشية .
٢) لحد خاطر : تاريخ لبنان ، بيروت ، سنة ١٩١٦ ، ص ١٣٠
٣) صالح بن يحيى ، ص ٦٢ و١٧٣

بجتر ، صاحبة الغرب ، وعائلة بللع زعيمة الجرد ، وصاحبة كفرسلوان ، روابط صداقة وقرابة . فان الامير سعد الدين خضر (١٢٣٩-١٣١٣) كان متزوجاً بابنة من كفرسلوان لم يذكر صالح بن يحيى اسمها ولا اسم عائلتها فدعاها بالكفرسلوانية ؛ وذلك تكتماً منه ، لأن عائلة بللع كانت لم تزل في ذلك الحين من الاسر الجردية التي اشتهرت بعدائها للمماليك والامير سعد الدين خضر هو من اشهر امراء الغرب ، ولقد جاء في تاريخ صالح بن يحيى انه «كان رجلاً جليل القدر زائد الحشمة حسن الشكل غوى الخيول الملاح والصيد واول من لعب بالطيور الجوارح من البيت ، وان صاحب قبرص اهدى اليه طيوراً (وربما كان الذي اهداها له صاحب بيروت ، لأن ذلك اقرب الى العقل) وكان غلمانه من عبيد حبوش مشترى ماله يرسل معهم خيله يرعيهم في المتن وكفرسلوان وتلك بيا مروج لمراعي خيله»[1] .

وكان يقطن في الغرب قبائل اخرى : آل تلحوق في راس بيروت ، وبنو ابي الجيش في عرامون .

وبنو تغلب كانوا مقيمين في مشغره ، اما نفوذهم فكان يمتد على قسم كبير من البقاع .

واما سهل البقاع فكان مشاعاً تتقاسمه بيوتات جبل لبنان الشهيرة .

وخلال الجزء الثاني من القرن الثالث عشر كان لم يزل الساحل وجميع المدن الساحلية في لبنان في قبضة الصليبيين . واسياد تلك المدن كانوا : في صور : جان دي منفورت . في بيروت : عائلة ابلين . في جبيل : في الثاني . في طرابلس : الامير بوهيموند السادس والامير بوهيمند السابع . وبين العائلات المعروفة في ذلك العهد اشتهرت عائلة فونتنال وبوي لوران ولارمينا[2] .

ان علاقات الاسياد الصليبيين اللبنانيين مع امراء الدروز والمسلمين والمقدمين الموارنة كانت ودية . فكان يتلقى امراء الغرب من اسياد بيروت الصليبيين

١) صالح بن يحيى ، ص ٦٠

٢) E. Rey, *Les Colonies Franques de Syrie aux XII^e et XIII^e siècle*. Paris, 1883, p. 32.

هدايا كالطيور الجوارح وبزاة الصيد ، وكان امراء الغرب يهدون السيدات الافرنجيات حرائر ثمينة واشبالاً من الخشب، وخواتم منقوشة ، ورسومات متقنة. وكانت في اغلب الاحيان من صنع الامراء انفسهم .

ومن الادلة على تلك العلاقات الحسنة ما ذكره صالح بن يحيى ، حفيد امراء الغرب وكاتب تاريخهم ، الذي عاش في القرن الخامس عشر ان رنو دي ساجت (صيدا) وهمفري دي منفورت البيروتي قد وهبا جدوده حق استغلال عدة من المزارع الساحلية . وقد اخبرنا صالح انه ، في سنة ١٢٦٧ ، وهب همفري دي منفورت الفرنجي ، صاحب بيروت ، الامير زين الدين علي ، بموجب كتاب منه ، شكارة العروسية « بشرط ان لا يبيعها ولا يهبها ومتى فعل ذلك رجع في هبته ومن شروطه مساعدته لصحوبيته وان لا يخلي في بلاده هارباً من بلد بيروت الّا ويرده صلحاً او بغيره وان لا يمكنه من الاقامة ازيد من ثمانية ايام ولا يمكن احداً من بلاده يفسد في بلد بيروت اعني الساحل لان بلد بيروت كان في تلك الوقت حيالة للمسلمين والساحل للفرنج . »[1]

وفي فصلي الربيع والصيف، كانت ترسل الخيول الى خارج المدن والى الجرود لاجل المرعى . وكان يجتمع امراء لبنان ومقدموه من كل الطوائف مع المشايخ والصليبيين للمباراة في ركوب الخيل ، ولعب الجريد ، والمبارزة في حماسة فائقة. ولقد اخبرنا صالح عن الامير سعد الدين خضر انه كان يرسل خيله يربعها في المتن وكفرسلوان وكان يملك قرية مروج لمراعي خيله « وانه قد غوى الخيل الملاح » . فكان يجري في باحات المروج قبل نزول الخيل الى الساحل العاب في الجريد ومباراة بين خيالة الجرد وكسروان والبقاع والسواحل اللبنانية . ومما يجدر ذكره ان هذه العادات لم تزل متبعة الى اليوم ، فكل سنة في نهار عيد مار تقلا الواقع في ٢ ايلول، يجتمع في المروج قرب ضهور الشوير الخيالة من دروز ونصارى ومتاولة من جميع الانحاء المجاورة للاشتراك في العاب الجريد والمبارزات الرياضية.

---

١) صالح بن يحيى ، ص ٥٣ و٥٧ و٨٠

كانت حياة اللبنانيين في ذلك العهد ملأى بالحروب والقتال المتواصل ، لذلك كانوا يتمرنون جدياً على الرمي بالنشاب وعلى الالعاب الحربية.

فكان يحمل الامراء والمقدمون اللبنانيون السيف ذا النصل المستقيم ، والرمح ، والخنجر ، والقوس. ويحاربون على ظهور جيادهم . اما الفلاحون فكان سلاحهم القوس ، والدبوس ، والطبر التي اخذوها عن الصليبيين . وكانت الرجال في الغالب مدرعة .

ولقد صرّح المؤرخ الافرنسي راي ان اللبنانيين هم اشهر الرماة في ذلك العصر[1]. واعطانا صالح بن يحيى في تاريخه ادلة عديدة على براعة اللبنانيين في الرمي بالنشاب ، وعلى اعجاب المصريين والتتار بمهارتهم . فاللبنانيون كانوا يتباهون بجمال قسيهم وقوتها فكانت تزين جدران منازلهم ويتوارثونها ويتهادونها ويصطادون بها الطيور والحيوانات البرية ويحاربون بها دون سواها اغلب الاوقات. والبارع بالرمي كان محترماً ، مكرماً . وكانت صناعة القسي الممتازة محتكرة في لبنان فكان المصريون والسوريون يشترون القسي القوية الجيدة من بلادنا . ففي موقعة عين الجالوت ، الواقعة بين بيسان ونابلس من اعمال فلسطين ، التي انتصرت بها جيوش المماليك على التتار ، كان الامير زين الدين صالح الشوخي يحارب مع المماليك ، فتحصن شرذمة من التتار في ذروة الجبل ، فاخذ يرميهم زين الدين عن قوس قوية . فاعجب مماليك السلطان رميهُ وصاروا يقدمون له النشاب من تراكيشهم (جعبهم) . ولقد اخبرنا ايضاً صالح بن يحيى ان احدهم اخبر زين الدين علي انه رأى دباً « فتوجه زين الدين ليلاً الى المكان ولم يصحب احداً ومعه قوسه فأكمن في المكان الذي قيل له عنه . فلما جاز الاسد عليه علم انه مغرور بالقول الذي قيل له ورمى الاسد بسهم واحد متعمداً على بيت القلب فمات الاسد منه .» اما عز الدين جواد فكان يرمي عن قوس ازيد من قنطار بالدمشقي فلما توفي اخذها ابراهيم بن ناصر الدين الحسين ثم باعها لرجل يسمى الفقريس من قرية البرج ثم اخذها تنكز بغا نائب حلب الخ . . .[2] وقال

(١) E. Rey, p. 33

(٢) صالح بن يحيى ، ص : ٦٥ ، ٨٢ ، ١٥٢ ، ١٦٣ ، ١٧٤ و٢٠٥

الدومنيكي برشارد الذي زار الشرق في سنة ١٢٨٣ : « ان الموارنة وحدهم يمكنهم تجنيد اربعين الف مقاتل »[1] وكانوا يلقبون بالرماة او النبالة .

ولقد شهد مؤرخ الصليبيين غيليوم الصوري انهم، اي الموارنة، رجال شجعان اشداء في الحرب وقدموا الى رجالنا خدمات جلى في مواقعهم العديدة مع اعدائهم[2] .

كان لدى اللبنانيين في ارضهم المادتان اللازمتان لصنع الاسلحة في ذلك العصر : الخشب والحديد . على اننا ، من جهة اخرى ، نرى اخصامهم المماليك قد سبقوهم في الصناعات الحربية ، فكان لديهم آلات متقنة كالمنجنيق التي كانت ترمي الحجارة الضخمة لابعد من ثلاثمائة متر . وكان لدى المماليك ايضاً جيوش خاصة لنقب الجدران ، ولسف الابراج .

ان لبنان كان بحاجة في ذلك العصر لزعيم قوي يجمع ، تحت سلطته ، رؤساء القرى والمقاطعات ، او لملك شرعي يجمع شتاتهم ويوحد صفوفهم . فالامراء والمقدمون كانوا مستقلين بعضهم عن البعض . وكان يعيش كل منهم في قلعته لا يفكر الّا في الدفاع عن قريته . كذلك كانت المدن الفرنجية منقسمة بعضها على البعض تتنازعها الاحزاب السياسية والمطامع التجارية . فكان على كل امير ، وعلى كل مقدم ، وعلى كل مدينة من مدن الشاطىء ، ان تتلقى وحدها صدمة جيوش المماليك بكاملها، من دون اي مساعدة من جارتها الاقرب اليها . وعلى العكس من ذلك كان السلاطين المماليك يحكمون بلادهم حكماً دكتاتورياً، ويقبضون في يد واحدة على اعنة سلطتهم الممتدة من رمال طرابلس الغرب الى ضفاف الفرات .

لقد حارب لبنان اولاً السلطان بيبرس الدموي الذي توصل للملك باشتراكه بقتل سلطانه المعظم الايوبي ، وبقتله صديقه السلطان المظفر

(١ Mgr. Dib, *l'Eglise Maronite*, t. I., p. 186

(٢ Mgr. Dib, p. 87.

سيف الدين قطوز . وهذا المملوك الذي تولى السلطنة وحكم مصر وسورية كان جندياً نابغة ، وسياسياً محنكاً ، وادارياً ماهراً . فهو الذي اوقف القديس لويس في المنصورة بمصر ، وانتصر على هولاكو الشهير في عين الجالوت قرب بيسان في بلاد الجليل ، وطرد المغول من سورية . وهو الذي توصل الى منع اتحاد اللبنانيين ، ومحاربة كل مقاطعة وكل مدينة لوحدها . فتحتم اذاً على اللبنانيين ان يخوضوا غمار حرب لا توازن فيها ضد اشهر السلاطين المماليك ، اي ضد الظاهر بيبرس (١٢٦٠–١٢٧٧) ، والمنصور قلاوون (١٢٧٩–١٢٩٠) ، والاشرف خليل (١٢٩٠–١٢٩٣) ، والناصر ابن قلاوون (١٢٩٩–١٣٠٨) .

وقد سعى السلطان بيبرس وتمكن من منع اتحاد الصليبيين بعضهم مع البعض ، او اتحادهم مع اللبنانيين ، لمقاتلة كل منهم على حدة . فعقد اولاً في سنة ١٢٧٢ مع عكا، اقوى المدن الساحلية الصليبية في ذلك العصر هدنة لعشر سنين وعشرة اشهر . وحتى يحول دون عقد معاهدة دفاعية بين امراء الغرب وامير طرابلس بوهيمند السادس الذي انتزع منه انطاكية ، عمد بيبرس في سنة ١٢٧٦ لسجن امراء الغرب بمصر ، وهم زين الدين ، وجمال الدين ، وسعد الدين مجتر[1] ولقد سعى الامير بدر الدين صديقهم ، ونائب بيبرس ، في الافراج عنهم فاجابه بيبرس «هؤلاء ما افرج عنهم ولا اذيهم حتى افتتح طرابلس وصيدا وبيروت.»[2]

فنُزِعَ عندئذٍ اقطاع كفرعمي من امراء مجتُر ، وأُعطي لاجنبي عن البلاد ، قطب الدين السعدي ، فقتله الامير نجم الدين ابن الامير جمال الدين المحبوس في مصر . فاتخذ المماليك هذه الجريمة حجة لدخول بلاد الغرب ونهبها ، فاخذوا الحريم وجُعلنَ جواري ، والاولاد وجُعلوا مماليك ، واخذت خيولهم واغنامهم وابقارهم وقماشهم ولقد قال صالح بن يحيى في ذكره هذه الواقعة : « وهذه الكائنة ما سمعنا انه جرى على الغرب كائنة اخس منها . »[3]

وبعد ان دمّر المماليك الغرب ، قرروا كسر شوكة مقدمي لبنان الشمالي ،

١) صالح بن يحيى ، ص ٧٠
٢) صالح بن يحيى ، ص ٧٠
٣) صالح بن يحيى ، ص ٧٤ في الحاشية و٧٥ و٧٦

اصدقاء الافرنج المخلصين ، الـذين اجبروا المماليك في سنة ١٢٦٤ على رفع الحصار عن طرابلس ، وهزموهم هزيمة شنعاء.[١] فبعد انتصار السلطان قلاوون ، في سنة ١٢٨١ ، في سهول حمص ، على جيوش المغول ، ارسل مماليكه لحصار امدن في شهر ايار سنة ١٢٨٣ . فحاصروها حصارًا شديدًا . فقاومت بنجاح هجماتهم العنيفة مدة اربعين يومًا ، واخيرًا اضطرت للتسليم . فنهبوها وهدموا القلعة التي في وسطها ، والحصن الذي على رأس الجبل . « ثم انتقلوا الى بقوفا ففتحوها في شهر تموز وقبضوا على اكابرها واحرقوهم في البيوت ودكوها الى الارض واسرفوا في النهب والسلب » . اما اهالي حصرون وكفرسارون فانهم عندما عجزوا عن المقاومـة ، هرب البعض منهم والبعض الآخر التجأ الى الكنيسة ، فذبحوا فيها.[٢]

وفي ٢٢ آب سنة ١٢٨٣ ، هاجموا الحدث فهرب اهلها الى العاصي ، قرب الحدث ، وهي مغارة محصنة فيها صهريج ماء. وحاصروا بها ، وكان يتولى الدفاع عنها البطريرك دانيال الحدشيتي بنفسه . فعجز المماليك عن فتحها . وكان قد قارب الشتاء. فعمدوا الى حيلة لالقاء القبض على البطريرك ، وتوصلوا بخيانة ابن الصيحا من كفرصغاب لاستملاك ذلك الحصن العاصي . واليكم ما جاء في تاريخ السلطان قلاوون عن البطريرك : « وتحصن البطرك في الحدث وشمخ بانفه . وما قدر احد على التحيل عليه من بين يديه ولا من خلفه . ولولا خوفه من سطوة مولانا السلطان خرب تلك البلاد وفعل ذلك او كاد . فاتفق ان النواب ترصدوه مرارًا فما وجدوه . فقصده التركمان في مكانه وتحيلوا حتى امسكوه واحضروه اسيرًا حسيرًا وكان من دهاة الكفر وطواغيتهم واستراح المسلمون منه وامنوا شره . وكان امساكه فتوحـاً عظيماً اعظم من افتتاح حصن او قلعة وكفى الله مكره. »[٣]

---

١) الدويهي : تاريخ الطائفة المارونية (طبعة رشيد الشرتوني) المطبعة الكاثوليكية سنة ١٨٩٠ ، ص ١١١

٢) الدويهي ، ص ١١٥

٣) مجلة المنارة ، سنة ١٩٣٦ ، ص ٢٠٤

وبعد اخضاع لبنان الشمالي ، حاصر السلطان قلاوون طرابلس ، وانتزعها من الصليبيين سنة ١٢٨٩ . وخلفه السلطان الاشرف خليل ، فافتتح جميع المدن الساحلية وهدم قلاعها في سنة ١٢٩١ .

وما كاد المماليك يطردون الافرنج من الساحل حتى تحولوا بانظارهم الى كسروان ، الجبل الوحيد في لبنان الذي بقي محافظاً لذلك الوقت على استقلاله التام ، وخارجاً عن سلطة المماليك ، ومتمرداً على جيوشهم ونوابهم في بلاد الشام . فقرر قواد الجيوش اخضاعه كغيره من المقاطعات اللبنانية ، وجهزوا عليه حملة قوية في سنة ١٢٩٢ .

وقبل اعطائكم التفاصيل الوافية عن هذه الحملة ونتائجها ، علينا ان نبين اهمية جبل كسروان وبطولة سكانه :

ان حدود كسروان الجنوبية كانت تتصل بنهر بيروت ، وبلاد الشوف . فالمتن بكامله كان جزءا من كسروان . فهو يسيطر اذاً من جهة على سهل البقاع ، ومن جهة اخرى على البحر ، ولا يصعب على الكسروانيين مد يد المساعدة لاعداء المماليك سواء كانوا المغول القادمين بسهول البقاع او الافرنج الزاحفين في البحر . اما سكان هذا الجبل فكانوا من جميع الطوائف اللبنانية . كانت الاكثرية الساحقة منهم دروزاً يقيمون في الجرد ، اي في حمانا ، والراس ، وقرنايل ، وترشيش ، وزرعون ، وكفرسلوان ، والمتين ، وزحله ، وبسكنتا ، وما جاور تلك القرى . ويأتي بعدهم الموارنة . ويقيمون في بسكنتا ، وكفرعقاب ، ومزرعة كفرديبان ، وفاريا ، وميروبا ، وحراجل ، وبكفيا ، وبحرصاف ، وبخنس ، وما جاور هذه القرى . وكانت تسكن اقلية شيعية ونصيرية بين الدروز . وكان يسكن في الشوير ، والخنشاره ، وبتغرين ، وما جاورها اقلية من النصارى الملكيين . اما اليعاقبة فكان اكثرهم يقطن في جونيه وضواحيها .

ان جميع هذه الاقليات ، عندما رأت ما حلّ بباقي الانحاء اللبنانية من القتل والنهب والخراب ، اتحدت يداً واحدة ، وسلموا قيادتهم لاسرة لبنانية كريمة عريقة في البلاد اشتهرت بالبطولة والوطنية والنزاهة ، الا وهي اسرة بيت

بللمع الشهيرة: فلقد جاء بتاريخ المطران تادوروس ان النصارى من جميع الطوائف فوضوا امرهم عندئذ الى هذه الاسرة الشريفة «واظهروا لها سرهم» ويقول المطران تادوروس ايضاً: «ان بيت بللمع الدرزي كانوا مقدمين في ذلك الوقت على الشحار والجرد والبقاع. فحلفوا لهم (اي للنصارى) انهم سعدتهم ولم خانوهم من حين اتفاقهم.»[1] وبالواقع سنرى ان الامراء البللمعيين او امراء الجبال، كما يسميهم الدروز والمسلمون، او المقدمين البللمعيين كما يسميهم النصارى، كانوا عند ثقة مواطنيهم بهم، واظهروا من البطولة في القتال ما تعجز عنه الجابرة.

والكم تفاصيل هذه الحملة كما ذكرها صالح بن يحيى:

«في شهر شعبان سنة احدى وتسعين وستماية (١٢٩٢ م) توجه الامير بيدرا بعظم العساكر المصرية وصحبته من الامراء الاكابر شمس الدين سنقر الاشقر والامير قرا سنقر المنصوري والامير بدر الدين بكتوت الاتابكي والامير بدر الدين بكتوت القلاعي وغيرهم. وقصدوا جبال كسروان واتهم من جبات الساحل وكن الدين بيبرس طقصوا والامير عز الدين ايبك الحموي وغيرهما والتقوا بالجبل وحضر الى الامير بيدرا من ثنى عزمه وكسر حدته فحصل الفتور في امرهم حتى تمكنوا من بعض العساكر في تلك الاوعار ومضايق الجبال فنالوا منهم وعاد العسكر شبه المكسور المنهزم وطمع اهل تلك الجبال فاضطر الامير بيدرا الى اطابة قلوبهم والاحسان اليهم وخلع على جماعة منهم كانوا قد اعتقلوا بدمشق لذنوب وجرائم صدرت منهم وحصل للكسروانيين من القتل والنهب والظفر ما لم يكن في حسابهم وحصل للامراء والعسكر من الالم ما اوجب تصريح بعضهم بسوء تدبير الامير بيدرا ونسبوه الى انه انما اهمل امرهم وفتر عن قتالهم حتى تمكنوا مما تمكنوا منه لطمعه فانه تبرطل منهم واخذ منهم جملة كبيرة واحتج الناس بذلك.»[2]

---

١) حروب المقدمين، ص ١٧

٢) صالح بن يحيى، ص ٢٩ و٣٠

اما المؤرخ المقريزي فقد روى هذه الحادثة على الشكل الآتي :

« وفيه خرج الامير بدرالدين بيدرا نائب السلطنة بديار مصر ومعه معظم العسكر الى جبال كسروان من جهة الساحل فلقيهم اهل الجبال وعاد بيدرا شبه المهزوم واضطرب العسكر اضطراباً عظيماً فطمع اهل الجبال فيهم وتشوش الامراء من ذلك وحقدوا على بيدرا ونسبوه انه اخذ منهم رشوة. »[1]

على ان صالح لم يذكر شيئاً عن الكسروانيين . فاليكم ما قاله المطران تادوروس بالحرف الواحد : « واجتمعوا الكساروه وبيت بللمع في بسكنتا وانتظروا عسكر الشام حتى وصل الى عين صنين وتصافقوا الفريقين . وانهزم عسكر الشام من قدامهم واخذوا يقتلوا فيهم حتى ما سلم الا خمس رجال وصلوا الى الشام واخبروا بما صار فيهم . »[2]

ولم يذكر المؤرخون عدد جيوش المماليك في هذه الحملة ، ولا عدد العصاة اللبنانيين . ولكن يمكننا ان نقول مع الأب لامنس ان عدد الجيوش المصرية كان عظيماً بالنسبة لعدد الامراء الذين اشتركوا بهذه الحملة وبالنسبة لشخصياتهم الكبيرة[3] ولا يمكن تقديره بأقل من ثلاثين الف مقاتل . اما عدد الكسروانيين فلم يتجاوز العشرة آلاف مقاتل ، كما يستدل من اقوال المقريزي وابن سباط الدرزي .

على ان هذا الانتصار الباهر الذي احرزه الكسروانيون والبللميون كان سبباً مباشراً لهلاكهم ودمار بلادهم . ذلك ان المماليك قد وطدوا العزم في هذه المرة على ابادتهم بكاملهم ، وعلى خراب بلادهم نهائياً ، فأخذوا بالاستعداد مدة سبع سنوات . فجمعوا الجيوش من سورية ومصر في صفد ، ودمشق ، وطرابلس . وبعد ان تم تجهيز الجيوش بكاملها اظهر المماليك للثوّار انهم يريدون السلم ولا يطلبون منهم الا نزع سلاحهم والخضوع للسلطان . فوجه نائب الشام

١) المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة سنة ١٩٣٩ ، ص ٧٧٦

٢) الخوري بولس قرألي : حروب المقدمين ، ص ٨٨

٣) Lammens, dans *Revue de l'Orient Chrétien*, VII, 1902, p. 458

الافرم زين الدين عدنان ، وقراقوس ، وتقي الدين ابن تيمية[1] ، الذي كان يتمتع عندئذ بسلطة دينية وادبية واسعة في مصر وسورية ؛ فبعد ان عجز ابن تيمية عن اقناعهم ، راح يبشر بالجهاد ضدهم لابادتهم ، وكان تأثيره على مواطنيه عظيماً . فكتب الى جميع انحاء سورية حاثاً الرجال على القتال مبيناً اهمية تنظيم حملة ثانية ضدهم ، والاسباب الشرعية الدينية التي تبرر الحكم الذي تقرر تنفيذه في كسروان والكسروانيين ، وألّف في سبيل ذلك مؤلّفين ذكرهما ابن شاكر الكتبي وهما : « الرد على اهل كسروان الرافضة » و« الجواب الصحيح على النصارى . » ردًّا على الرافضين وعلى المسيحيين .[2]

واليكم التهم التي وجهها تقي الدين ابن تيمية والمماليك الى الكسروانيين والجرديين : اتهموا بانهم اقاموا سوقاً علنية مدة عشرين يوماً على الشاطئ ، وباعوا من القبارسة الاسلحة والخيول التي غنموها من المسلمين . واتهموا انهم فرحوا بمجيء التتر مع الافرنج ، وبانهم باعوا من الافرنج جنودًا اسروها من جيوش المماليك ، وانهم تصدوا للعساكر المصرية المنهزمة من وجه المغول ، ونهبوها ، وفتكوا بالبعض منها ، وباعوهم اسرى للافرنج ، وبأنهم مدوا بالذخيرة الصليبيين المحاصرين في طرابلس . وبأنهم يستقبلون الافرنج من جزيرة قبرس ويضيفونهم في بيوتهم .

وهاكم ما حفظه لنا صالح بن يحيى بالحرف الواحد عن اسباب هذه الحملة : « ومما نقلناه عن النويري والصلاح الكتبي في فتوح كسروان في حوادث سنة خمس وسبعماية (١٣٠٥ م) قالا في ذكر توجه العساكر الشامية الى جبال كسروان وابادة اهلها وتهيدها وهي النوبة الثانية في ايام السلطان الملك الناصر محمد بن المنصور . قالا : كان اهل كسروان قد كثروا وطغوا واشتدت شوكتهم وامتدوا الى اذى العسكر عند انهزامه من التتر سنة تسع وتسعين وستماية (١٣٠٠ م) وتراخى الامر عنهم وتمادى وحصل اغفال امرهم فزاد طغيانهم

---

١) صالح بن يحيى ، ص ٢٢

٢) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ؛ طبعة بولاق ، ص ٢٥

واظهروا الخروج عن الطاعة واعتزلوا بجبالهم المنيعة وجموعهم الكثيرة وانه لا يمكن الوصول اليهم »[1]

ان اقرب الناس لهذه الحوادث هما الاسقف تادوروس وصالح بن يحيى. وعلى الرغم من الاخطاء العديدة في مخطوطة المطران تادوروس ، فان فيها تعليمات ثمينة لا تناقض بتاتاً ما ذكره صالح . ان هـذا الاسقف كان معاصراً لهذه الحوادث، وهو يذكر ان استعدادات المماليك لهذه الحملة دامت سبع سنين،وان عدد العساكر التي اجتمعت في بلاد الشام بلغ المائة والخمسين الف مقاتل ، وان الأوامر قد اصدرت للعساكر لتركب على جبل كسروان وتطوقه من الشرق والقبلة والشمال ثم تدخل البلاد وتهدم « القلاع والابرجة والكنائس والاديرة والضياع والعالي تجعلوه واطي والخشن سهل وتقتلوا الرجال والصبيان والنساء والوضع بالسرير .فلما وصل الامر ركبوا وحاطوا البلاد خمسين الف من قب الياس الى انطلياس وخمسين الف من قب الياس الى نبع الخارجة وخمسين الف من الخارجة الى نهر ابراهيم للبحر ومقدم للعسكر نزل في مدينة قبعل وحطوهم تحت الحصار وظلوا اربعة اشهر حتى ملكوا البلاد . ولما ملكوا البلاد جعلوها عجة للجيران ولم خلص منهم ذو حي الّا مدينة جونيه راحوا في المراكب.»[2]

اما صالح فقد ذكر هذه الحوادث على الوجه الآتي : « فعند ذلك رُسِمَ بتجريد العساكر اليهم من كل جهة وكل مملكة من الممالك الشامية . وتوجه افتش الاهرم من دمشق بباقي الجيوش في يوم الاثنين ثاني المحرم سنة خمس وسبعماية (١٣٠٥ م.) وجمع جمعاً كثيراً من الوجالة نحو خمسين الفاً وتوجهوا الى جبال الكسروانيين والجرديين . وتوجه سيف الدين اسندمر نائب طرابلس وشمس الدين سنقرجاه المنصوري نائب صفد وطلع اسندمر المذكور من جهة طرابلس وكان قد نسب الى مباطنتهم فجرّد العزم واراد ان يفعل في هذا الامر ما ينفي عنه هذه الشناعة التي وقعت به . فطلع الى جبل كسروان من اصعب

١) صالح بن يحيى ، ص ٢١ و٢٢

٢) الخوري بولس قرألي : حروب المقدمين ص ٨٦ و٨٧

ممالكه واجتمعت عليهم العساكر واحترت على جبالهم ووطئت ارضه لم يكن اهلها يظنون ان احداً يطأها وقطعت كرومهم واخربت بيوتهم وقتل منهم خلق كثير وتفرقوا في البلاد . واستخدم استدمر جماعة منهم في طرابلس بحامكيته وجزائه من الاموال الديوانية فاقاموا على ذلك سنين واقطع بعضهم اخبار من حلقة طرابلس واختفى بعضهم في البلاد واضمحل امرهم وخمل ذكرهم.»[1]

واما المقريزي فقد ذكر هذه الحوادث الشهيرة بالحرف التالي : « وفي عشرى شوال توجه الامير آقش الأفرم من دمشق لغزو الدرزية اهل جبال كسروان فان ضررهم اشتهر وامتنعوا في جبلهم وهو صعب المرتقى وصاروا في اثني عشر الف رام. فزحفت العساكر السلطانية عليهم فلم تطقهم وجُرح كثيرٌ منهم فاضطر عندئذ قواد الجيوش للمناداة بالعساكر بخنق كل جندي وكل راجل لا يتقدم للمحاربة او ينهزم من المعركة . فافترقت العساكر عليهم من عدة جهات وقاتلوهم ستة ايام قتالاً شديداً الى الغاية فلم يثبت اهل الجبال وانهزموا . وصعد العسكر الجبل بعد ان قتل منهم وأسر خلقاً كثيراً ووضع السيف فيهم .»[2]

هذا وقد سمي شهالي كسروان الى الآن فتوحاً اشارة لدخول نائب طرابلس هذا مع جيوشه اليه لاول مرة. وذكر ابو الفدا هذه الواقعة بتاريخ سنة ٧٠٥ هجرية. وكذلك ابن الوردي ذكرها في تاريخه وزاد قائلاً : « وكان الذي افتى بذلك ابن تيمية وتوجه مع العسكر.» اما ابن سباط المؤرخ الدرزي، الذي عرف في شبابه صالح بن يحيى ، فقد ترك لنا تعليقات ثمينة ، وهي ان رجال الدروز الجرديين « كانوا عشرة امراء بعشرة آلاف مقاتل » هؤلاء الامراء ، ولا شك ، هم الامراء البلدميون ، لأنهم هم وحدهم زعماء الجرد وكسروان في ذلك الوقت ، وقد سماهم صراحةً الطوران تدوروس ولكنه دعاهم بالمقدمين البلدميين لا بالامراء ، كما سمى نائب الشام الافرم مقدم العسكر، لا الامير ، كما يسميه مؤرخو الاسلام .

---

١) صالح بن يحيى ، ص ٢٢ و٢٣ ؛ Quatremère, t. II, Paris, année 705, p. 233

٢) المقريزي ، ص ٩٠٢ و٩٠٣

ويقول ابن سباط المذكور ان الجيشين التقيا عند عين صوفر ، وجرى بينهما قتال عظيم لا توازن فيه بالعدد فكانت الهزيمة على الامراء : « فهربوا بحريمهم وارزاقهم ونحو ثلاثمائية رجل من اتباعهم واجتمعوا في المغار غربي كسروان المعروف بمغارة نبيه وهي فوق انطلياس بالقرب من مغارة البلانه»[1] . ويقول صالح ابن يحيى : « ان موقعة نبيه المذكورة كانت وقعة رديئة لأن اهل كسروان تجمعوا وقاتلوا بها وكان فيها مغارة اجتمعوا بها بعد القتال وذكر ان عدد اهل كسروان هناك كان اربعة آلاف رجل فراح تحت السيف منهم خلق كثير والسالم منهم تفرقوا في جزين وبلادها وفي البقاع وبلاد بعلبك . »[2] وقتل من امراء الغرب في هذه الموقعة الامير نجم الدين محمود واخوه شهاب الدين ، ولدا الامير جمال الدين ، وثلاثة وعشرون نفرًا .

وجاء في ابن سباط المذكور انه بعد انكسار الكسروانيين والحرديين اجتمعت بقية منهم في مغارة نبيه المذكورة ، فامر نائب دمشق ان يبنوا على باب المغارة سدًا من الحجارة ، ثم هالوا على بابه التراب والاحجار ، وجعلوا حارساً عليهم فهلكوا داخل الردم[3] ويقول ايضاً ابن سباط : « ان جيوش المماليك احاطت بتلك الجبال من كل الجهات ووطئت ارضاً لم يكن احد صعد اليها واخربوا القرى وقطعوا الكروم ونهبوا وقتلوا كل من وجدوه فخربت تلك الجبال المنيعة . »[4]

ويذكر جميع المؤرخين من نصارى ومسلمين ودروز ، بنوع خاص ، ان الجيوش المهاجمة قطعت كروم الكسروانيين . فاين كانت تلك الكروم وما هي قيمتها في ذلك الوقت ؟ ان تلك الكروم كانت واسعة ، وعنبها وخمرها لذيذًا جدًا . وهي كانت تكسو الجبال الممتدة من ضهور بعبدات وبجنس الى ضهور الشوير . فكان غابات الصنوبر الكائنة هناك الآن كانت تمتد كروم

١) الامير حيدر شهاب : كتاب الدر الحسان ، ص ٤٨٠
٢) صالح بن يحيى ، ص ١٠٠
٣) الامير حيدر ، ص ٤٨٠
٤) الامير حيدر ، ص ٤٨٠

العنب ، وهذا تحققناه بنفسنا ، وشاهدنا عددًا كثيرًا من معاصر العنب الكائنة على تلك الجبال بين غابات الصنوبر القائمة الان. ولم تزل بقية من تلك الكروم القديمة الى اليوم . وقد اطلعنا على صكوك قديمة يرجع تاريخها الى ابعد من اربعمائة سنة تسمي غابات الصنوبر الحالية « بكرم العنب » و« كرم التين » . وكانت كروم العنب منتشرة ايضاً حوالى صنين من جميع جهاته ، فكروم زحله ترجع الى ذلك العهد ، وكانت اوسع مما هي عليه الان بكثير وتمتد الى نواحي عينطوره والمتين .

وبعد ان تم خراب كسروان واخرد زاد صالح قائلًا : « وعاد نائب الشام الى دمشق في رابع شهر صفر من السنة المذكورة وجعل الناظر في بعلبك والجبال الكسروانية بها. الدين قراقوش فاخلا ما كان تأخر بجبال كسروان وقتل من اعيانهم جماعة ثم اعطوا اماناً لمن استقر في غير كسروان. »[1]

قد اجمع المؤرخون على اختلاف مذاهبهم ان المماليك لم يتركوا في كسروان كسروانياً واحداً الّا قتلوه ، ولم يعطوا الامان الا لمن كان قد تمكن من الهرب واقام خارجاً عن كسروان. ومن نجا من الكسروانيين التجأ اذًا إما الى البقاع حيث كان لهم قرى ومزارع ، واما الى بلاد جزين حيث كان للدروز اصحاب وأقارب، وإما الى بلاد بعلبك، الى العاقوره وما يليها حيث كان للموارنة قرى واديرة وكنائس ، واخيرًا من تمكن من سكان السواحل كأهل جونيه قد التجأوا في المراكب الى جزيرة قبرس . فغدت جبال كسروان في ذلك العهد خالية من السكان ، واضحت مقبرة واسعة لاهاليها . ولقد ختم المطران تادوروس كلامه عن هذه الحوادث المفجعة بهذه الكلمات : « وتأسفت الجيران على دمار كسروان وجيرة تاسه .»[2]

وهكذا قضي على ابطال الملحمة الصليبية الاخرين الواحد تلو الاخر ، بعد ان ارغموا المماليك على حشد جيوشهم ، وكل ما لديهم من قوى ، والقتال قتالًا

١) صالح بن يحيى ، ص ٢٢

٢) حروب المقدمين ، ص ٨٨

عنيفاً لاستملاك كل مضيق من مضايق اوديتنا وكل اكمة من اكمات جبالنا ، وبعد اجبارهم على دفع ثمن كل بقعة من ارضنا ثمناً باهظاً . فقاوم اسلافنا مدة اربعة اشهر مدافعين عن ترابهم شبراً شبراً ، مضحين ، في سبيل حريتهم واستقلالهم في بلادهم ، بقراهم واملاكهم وبيوتهم واموالهم وحريمهم واولادهم وحياتهم . وعلى الرغم من كثرة الجيوش المعادية لهم ، فان خوف المماليك من النبالة اللبنانيين كان يرعبهم ويُرعد فرائصهم ، حتى اضطر نائب دمشق في اليوم الاول والثاني من معركة كسروان العائلة ان يأمر قواده بالمناداة بالعساكر ان كل جندي يرتدّ الى الوراء او ينهزم يُخنق ويقتل حالاً في مكانه . واستشهاد اولئك الابطال قد القى الستار على عصر من ابرع العصور التي مرت على لبنان . فلقد كانت وطأة هذا الانكسار شديدة على لبنان وشاملة جميع ابنائه ، حتى انه منذ ذاك التاريخ خسر اللبنانيون لقب العصاة او الجبابرة الذي طالما تغنوا به . وابتداء من سنة ١٣٠٥ فقد الموارنة ، ولزمن طويل لقب « مردة » ، وضيع الدروز ايضاً شخصيتهم الحربية الشهيرة . وكان الامير ضارباً اطنابه على جبالنا في بدء القرن الرابع عشر ، فاضحى لبنان في هذا القرن رازحاً تحت عبء خراب دوره وقلاعه ومخضباً بدماء ابنائه . وبالواقع انه لم يمرّ على بلادنا عصر اسوأ من هذا العصر .

ولما كانت السيطرة على البحر في يد الافرنج ، وظلت هكذا الى زمن متأخر ، التجأ كثير من اللبنانيين ، وخصوصاً الموارنة ، الى قبرس حيث كان لهم هناك اسقف مقيم في الجزيرة نفسها وطائفة يزيد عددها على الثلاثين الفاً ، وتملك اكثر من اثنين وسبعين قرية .[1]

اما العصر الثاني من عهد المماليك فكان عصر تعمير ، واتحاد ، وامل وطيد .

وها نحن نلقي نظرة سريعة على حالة اهم المقاطعات اللبنانية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، اي على كسروان ، والغرب ، ولبنان الشمالي :

---

(١) Mgr. Dib, *l'Eglise Maronite*. Paris 1930, t. I., p. 359

ان كسروان يهمنا ، قبل كل شيء ، للبطولة الفائقة التي اظهرها في حروبه مع المماليك . وللويلات الهائلة التي نزلت به .

في سبيل منع الافرنج واللبنانيين من الرجوع الى كسروان ، ادخل المماليك الى ذاك البلد التركمان والاكراد ، واناطوا بهم مراقبة كسروان ، والمحافظة على الشاطئ من بيروت الى طرابلس . فلم يسمح لاحد المرور في دربند نهر الكلب ، او التجوّل في كسروان ، من دون رخصة من امراء الغرب او من امراء التركمان . وقد نزل التركمان في الزوق ، وعين طورا ، وعين شقيق ، وجونيه ، وانطلياس[1] واسكنوا في اعالي جبال كسروان عائلات من المسلمين السنيين . ولكنهم لم يلبثوا ان تركوا ديارهم ، او باعوا اراضيهم الى المتاولة الذين باعوها بدورهم الى الموارنة او الدروز . وقد ترك لنا خادم رعية حراجل ، في جرود كسروان ، في اول القرن الثامن عشر ، مخطوطة يقول فيها حرفياً : « من بعد الفحص والسؤال من النصارى والمتاولي وجدت مع المتاولي تواريخ توضح قديمة الكنيسة التي على اسم السيدة عليها اشرف السلام . ووجود المتاولي في هذه القرية وقبلهم الاسلام وقبل الاسلام النصارى ووجود النصارى بعد المتاولي . . .

« ان الكنيسة على اسم السيدي مريم في حراجل قديمة ومبنية من زمان النصارى الذين كانوا قاعدين في هذه الضيعة وجتهن الاسلام وكحتهم وقلوا من الضيعة الى صوب بلاد العاقوره ورايح . وقعدوا الاسلام مطرح النصارى . وبوقته هدوا الكنيسي وما خلولا رسم من العمارة وما بقي فيها الا داره ويقولولا دارة السيدة مريم بس . الاسلام قعدوا وباعوا رزقهم للمشايخ بيت حمادى . بعتو مشايخ بيت حمادى للمتاولي في بلاد بعلبك وجابوهن وقعدوا في حراجل . ووقت الى جو سنة ١٥٠٥ . اني شفت تاريخهم مكتوب محمدى احسبته طالع هيك وقت ما جوا »[2] .

ومما يلفت النظر انه لم تتمكن خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ،

---

١) الامير حيدر ، ص ٤٨٠

٢) تاريخ عود النصارى الى جرد كسروان ، بقلم المخوري جرجي زغيب خادم حراجل . نشره المخوري بولس قرألي ، في المجلة السورية ، ص ١٩

اية عائلة كانت من الدروز او الموارنة من السكن في كسروان. ولكن عندما اخذت دولة المماليك في الانحطاط ، عاد الدروز الى الجرد ، وفي مقدمتهم امراء الجبال ، احفاد اولئك الابطال الاشاوس ، المقدمين بللمع ، الى كفرسلوان ؛ والمقدمون آل مزهر الى حمانا ، واخضعوا لسطوتهم سفحي الجرد المتن وكسروان من جهة ، وزحله والبقاع من الجهة الاخرى. كذلك الموارنة اسرعوا الى كسروان واخذوا يرفع الانقاض عن قراهم ، وبنيان الكنائس والقبب الشاهقة على انقاض الابراج الواقعة ، وبتعمير الاديرة على اسس الحصون المتهدمة . واول من عرفناه من الموارنة الذين رجعوا الى كسروان الشيخ المقدم جبيش بن موسى بن عبدالله ابن مخايل ، عميد المشايخ آل جبيش في لبنان . فلقد ترك يانوح وقدم غزير في سنة ١٥١٥ ، قبيل سقوط سلطنة المماليك تحت ضربات السلطان العثماني سليم الاول الشديدة .

ولا يخفى ان الموارنة والدروز ليسوا بدخلاء على كسروان ، فلقد استوطنوه في القرن الثالث عشر و ثاني عشر وما قبله والنكبة التي حلت في كسروان في سنة ١٣٠٥ حلت بهم قبل سائر الطوائف. فالشيعة والنصيرية لم تكن دوماً الا اقلية ضئيلة في كسروان . وها ان المؤرخ ابا الفداء († ١٣٣١) ، يذكره حوادث سنة ٧٠٥ هجرية ، يدعو الدروز المقيمين في كسروان بالظنيين والمارقين. وصالح بن يحيى ، على الرغم من تكتمه ولباقته ، لم يتمكن من ان يخفي علاقات المودة والقرابة التي تربط امراء الغرب بالكفرسلوانيين والجرديين الدروز. اما ابن سباط الدرزي († ١٥٢٠ م) فصرح ان رجال الدروز الجرديين المقاتلين في سنة ١٣٠٥ كانوا عشرة امراء بعشرة آلاف مقاتل . كذلك المقريزي صرح ان الاقوم توجه « لغزو الدرزية اهل جبال كسروان ». وخلافاً لما توهمه المستشرقون، حتى الكبار منهم، من امثال الاب لامنس اليسوعي[1] والسيد لاوست[2] نرى ان

(١) H. Lammens, *Les Nosairis dans le Liban.* [*Revue de l'Orient Chrétien,* VII. 1902.]

(٢) H. Laoust, *Remarques sur les expéditions du Kesrouan sous les premiers Mamlouks.* [*Bulletin du Musée de Beyrouth*] Paris, 1940

الموارنة لم يستفيدوا بتاتاً من خراب كسروان، ولم يحتلوا اراضي النصيريين ولا الشيعيين فيه في القرن الخامس عشر والسادس عشر، بل عادوا الى قراهم واراضيهم التي اضطروا الى تركها في سنة ١٣٠٥ وها ان الاسقف تادوروس، المعاصر لتلك الحملة، يؤكد اشتراك النصارى مع الدروز في تلك الحملة ووجودهم في غربي كسروان. وابن القلاعي يؤكد ازدهار الاسقفيات المارونية في بجرصاف، وبجنس، والراس اي راس المتن، من جنوبي كسروان قبل القرن الثالث عشر. وعند رجوع الموارنة الى كسروان وجدوا آثار كنائسهم التي خربت في حملة المماليك على كسروان سنة ١٣٠٥، فكنيسة مار يوحنا في بجرصاف، والسيدة في حراجل، وكثير غيرها من الكنائس والاديرة هي مبنية على انقاض الكنائس التي هدمت اثناء تلك الحملة العظيمة. فاختلاط الموارنة بالدروز يرجع الى ما قبل القرن السادس عشر، فيرجع بالواقع الى القرن الثاني عشر للمسيح.

اما المنطقة التي مثلت دوراً هاماً في لبنان في عصر المماليك فهي بلاد الغرب. ان الامراء البحتريين المعروفين بامراء الغرب قد توصلوا، بسياستهم اللينة، وادارتهم المرنة لحفظ رؤوسهم، وللمحافظة على اقطاعاتهم، وان يضموا اليها مدينة بيروت نفسها، ويتخذونها عاصمة لبلادهم. فخوفاً من الامراء المقيمين في قبرس ورودس قد كلف المماليك امراء الغرب المحافظة على السواحل اللبنانية من بيروت الى صيدا. فكان امراء الغرب يتناوبون المحافظة في كلتا المدينتين مع تسعين فارساً قسموهم ثلاثة اقسام جعلوهم ابداً يقيم ثلثون منهم شهراً ثم يعقبهم بدل اخر بالمناوبة، وكانت مهمتهم الاولى ان ينبهوا دمشق باسرع ما يمكن عما يجري في البحر تجاههم، واتخذوا لهذه الغاية النار يشعلونها في اماكن معينة حيث كان يرتفع اللهيب في الليل والدخان في النهار «فكانوا يشعلون النار في ظاهر بيروت فتجاوبها نار في راس بيروت العتيقة ومنه الى جبل برارش ومنه الى جبل بيروس ومنها الى جبل الصالحية ومنه الى قلعة دمشق. النار للحوادث في الليل وحمام البطاق للحوادث في النهار. والبريد الأخبار»[1].

١) صالح بن يحيى، ص ٣٩ و٤٠.

وقد شجع الامراء البحتريون في القرن الخامس عشر الزراعة والتجارة ، وفرضوا حمايتهم على كل مركب تجاري يدخل مرفأ بيروت حيث كان لدول اوربة بها تواصل . وكان يزدحم في هذا المرفأ مراكب قبرس والبندقية وجنوى وقطالونه وكل دول اوربة البحرية . قال صالح ما حرفيته : « ثم بعد ذلك صار بعض مراكب الافرنج تتردد اليها بالمتاجرة قليلاً قليلاً وكانت مراكب البنادقة تحضر الى قبرس وكان صاحب قبرس يرسل بضائعهم في شبقين (سفينتين) كانت له الى بيروت نقله من بعد اخرى وكان للقبارسة كنس ببيروت وجماعة تجار ساكنين ولهم خانات وحمامين . ثم بطل ذلك وتكاثر حضور مراكب طوائف الفرنج »[1] وفي ايام امير الغرب صدقة في اواسط القرن الخامس عشر امتد حكم الامراء البحتريين شمالاً الى طرابلس وجنوباً الى صفد[2] .

امـا لبنان الشمالي فكان يعيش في القرن الرابع عشر تحت نظام الضغط والارهاق، موجساً ان يحل به ما حل بجاره كسروان . وكان بطريرك الموارنة في ذلك العصر الزعيم المدني والديني الوحيد لشعبه بكامله . لكنه لم يتمكن من السكن في مركز ثابت ، فاقام في القرن الرابع عشر تارة في يانوح ، وحيناً في ميفوق ، وطوراً في كفرحي ، وكثيراً ما كان ينتقل هارباً من قرية الى اخرى ، واحياناً كان يلتجئ الى المغاور والكهوف[3] .

وكان الشعب الماروني يشترك مع الاكليروس بانتخاب البطريرك . وكل شخص كان عليه ان يدفع له العشر . وكان يتحتم على المقدمين الموارنة قبل القيام بوظائفهم ان يحصلوا على درجة شدياق ليحق لهم التقدم على العامة . وان حق الحرم الذي يتمتع به البطريرك كان يقضي على المحروم عندئذ بالنفي وبمصادرة املاكه غير المنقولة .

ومن الحوادث الغريبة هو انه ، في سنة ١٣٨٨ ، وصل الى بشري متنكراً ومتدروشاً سلطان المماليك ، الظاهر برقوق . ونرجح انه اتى ملتجئاً اليها من وجه

١) صالح بن يحيى ، ص ٣٩ و ٤٠ ٢) صالح بن يحيى ، ص ٢٢١
٣) Mgr. Dib. p. 156

الامير منطاش الثائر عليه . فتلقاه زعيم فتى يدعى الشديّاق يعقوب ابن ايوب ، وعامله حسبما تقضيه واجبات الضيافة اللبنانية ، وزار معه قاديشا ودير قنوبين .

وبعد ان انتصر نهائياً على السلطان حاجي بن شعبان ، اخر سلاطين المماليك الاتراك المعروفين بالبحريين ، وقبل ان يذهب الى الكرك في شرقي الاردن ، اظهر السلطان الظاهر برقوق ، مؤسس دولة المماليك البرجيين الشراكسة ، نفسه لضيفه . واقامه مقدماً على الموارنة ، وكتب له بذلك صحيفة من نحاس . واعطى رئيس دير قنوبين خطاً اعفى بموجبه ديره من الاموال الاميرية ، وجعل له التقدم على جميع اديرة لبنان[1] . فصداقة المقدم يعقوب ابن ايوب للسلطان ، واستقلاله عن نواب سورية ، مكّناه من حكم لبنان حكماً مطلقاً مدة اثنتين وستين سنة . ولقد ترك الحكم من بعده لاولاده الذين حافظوا عليه الى بعد سقوط دولة المماليك . فان المقدمين آل ايوب يعرفون ايضاً بمقدمي بشراي وقد حكموا حكماً عادلاً ، وتمتع لبنان الشمالي بايامهم في القرن الخامس عشر ، بسلم ورخاء وراحة حسده عليها جيرانه[2] . فتمكن الموارنة بهذا العصر من تضميد جروحهم ومن تعمير بلادهم والتعويض جزئياً عما لحقهم من الخراب في القرن السابق . وقد اتخذ البطريرك الماروني دير قنوبين مركزاً له في بدء القرن الخامس عشر بالقرب من المقدمين آل ايوب العادلين .

ما هي المميزات الخاصة بالحكم الاقطاعي في لبنان في عهد المماليك ؟

ان لبنان كان يتمتع ، في هذا العهد ، بامتيازات ضمنت له استقلاله الداخلي استقلالاً فعلياً . ان الاقطاع في لبنان يخوّل صاحبه حق الاستغلال والتصرف والملكية ، فكان اقطاعاً بالمعنى الفرنجي الصحيح . فلم يكن هبةً من سلاطين المماليك . كان السلطان بتشوره ، يثبت الامراء والمقدمين اللبنانيين في اقطاعاتهم الموروثة . اما في الممالك السورية والمصرية فلم يكن الاقطاع يخول صاحبه الا حق الاستغلال . وكان يمنح لأجل معين او — وهذا من النوادر — لمدة حياة صاحبه . لكنه لم يكن ينتقل في حال من الاحوال الى ورثته .

١) الدويهي ، ص ١٣٠ ٢) الدويهي ، ص ٤٦

في لبنان الاقطاع او المقاطعة هي ملك لصاحبها تنتقل بعد وفاته لورثته . وهكذا نرى ان امراء الغرب والمعنيين والشهابيين والمقدمين آل ايوب اورثوا مقاطعاتهم ومناطقهم بكاملها لورثتهم .

وعند عدم وجود الورثة الذكور ترث الابنة اقطاع والدها بكامله . ففي هذه الحال ايضاً لا يرجع الاقطاع الى السلطان ومثلاً على ذلك هو انه توفي في سنة ١٣٧٥ مقدم العاقوره غزال القيسي ، ولم يخلف ولداً ذكراً ، فانتقل ارثه واقطاعه لابنته زوجة الشدياق جرجس الملقب بالدحداح ، عميد المشايخ الدحادحة في لبنان .[1] وهذه القاعدة هي مطردة فحكم لبنان بكامله قد انتقل من المعنيين الى الشهابيين بواسطة ابنة الامير احمد معن والدة الامير حيدر شهاب .

ومن المرجح انه في سورية ومصر كان الفلاحون عبيد اسيادهم .

اما في لبنان فكانوا بالأغلب شركاءهم . فانهم ، وان لم يكن لهم حقوق سياسية ، كانوا يتمتعون بجميع الحقوق المدنية ، ولهم ان يختاروا المقاطعة التي يريدونها ، وان يشاركوا الامير او المقدم الذي يختارونه . وكان الجيش اللبناني في ذلك الحين مؤلفاً من الفلاحين ومن اسيادهم فقط .

في خارج لبنان كان النائب واصحاب الاقطاعات موظفين عند السلاطين المماليك وخاضعين لارادتهم . اما في لبنان فكان اصحاب المقاطعات حلفاءهم مستقلين عنهم في بلادهم ، يحق لهم ان يرفضوا الحرب خارج لبنان اذا دعاهم المماليك اليها ، ففي سنة ١٣٢٢ طلب الملك عماد الدين من الامراء الشهابيين ملاقاته لحصار الكرك . فاعتذر رئيسهم الامير حسين وامتنع عن الذهاب .[2]

في مصر وسورية كان يجبي الخراج والضرائب الموظفون الاداريون ، وينفق على رؤساء الجيوش وعلى العسكر ، وما فضل عنهم يذهب الى بيت المال . اما في لبنان فكان اصحاب المقاطعات غير خاضعين لهذا النظام . فكانوا اما يدفعون مبلغاً سنوياً ، واما يقومون بانفسهم بخدمات معينة لقاء اعفائهم من ذلك كاسرا .

---

١) الشيخ طنوس الشدياق : تاريخ الاعيان ، ص ١٠٦

٢) الشيخ طنوس الشدياق ، ص ٨٤

الغرب الذين تعهدوا بحراسة السواحل لقاء ما لديهم من الاقطاعات .

خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر اشتدّت عرى المودة بين جميع سكان لبنان ، لاسيما بين الدروز والموارنة ، واصبحت منذ سنة ١٣٠٥ علاقات حبية ، وكانت الثقة فيما بينهم متبادلة .

فكان الموارنة والدروز خاضعين لعادات واحدة في المسائل المدنية ، حتى وفي الاحوال الشخصية . الدروز كالموارنة لا يتزوجون الا بامرأة واحدة . وقوانين الوصية والارث كانت واحدة عند الطائفتين . نورد على ذلك مثلاً حرية الوصية وحق الانسان ان يوصي بجزء او بجميع املاكه لاحد ورثته دون الاخرين ، وقانون حرمان البنات من ارث ابائهم مع وجود الاخوة ، وقانون حق البنات بكامل ارث والدهم عند فقدان الورثة الذكور .

كان لهم جميعاً هدف وطني واحد ، يرمون من ورائه الى استقلال لبنان استقلالاً كاملاً ، والى المحافظة على تقاليده محافظة تامة .

ان اللبنانيين في ذلك العصر على الرغم من انكسارهم ومحاصرتهم في جبالهم وعزلهم عن اوربة والافرنج ، قد حفظوا خلفاءهم القدماء ذكرى لم تقوَ على الغائها السنون العديدة فلم يقنطوا قط من مشاهدتهم والاتصال بهم ، وكانوا يترقبون كل الفرص لتجديد معاهداتهم . ولا عجب اذا رأينا النواب الدروز والموارنة يغادرون لبنان معاً الى رومة نفسها في سنة ١٩٤١ ، ويطلبون من البابا ، ممثل اوربة والفرنج جميعاً في ذلك العهد ، ان يجدد مع بلادهم العلاقات الدبلوماسية . وقد اجاب الحبر الاعظم طلبهم ، وانشأ في سنة ١٤٤٤ مفوضية رسولية للموارنة والدروز[1] .

وعلينا ان نعترف اخيراً ان الذي مهّد السبيل لامير لبنان ، فخر الدين المعني الكبير ، ومكنه من تأسيس لبنان الحديث ، وتحقيق برنامجه الوطني بكامله ، هو اتحاد اللبنانيين قاطبة اتحاداً كاملاً ، ولاسيما صداقة الدروز والموارنة صداقة متينة حقيقية وفية لا غشّ فيها على الاطلاق .

---

(1) Mgr. Dib, p. 222